بلاغة السمات الأسلوبية الكاشفة عن قيمة اللطف في خطاب الأنبياء في القرآن الكريم (١)

الملخص:

تهدف الدراسة إلى الوقوف على خطاب الأنبياء في القرآن الكريم، للكشف عن أساليبه وسماته الكاشفة عن قيمة اللطف في الخطاب وتحليلها تحليلاً بيانياً، وصولاً إلى استنباط القيم الأخلاقية والسلوكية المرتبطة بجانب اللطف. واتبع الباحثان منهجي الاستقراء والتحليل بعد جمع الآيات التي برز فيها جانب اللطف في خطاب الأنبياء في القرآن الكريم.

وتوصلت الدراسة إلى نتائج عديدة، من أهمها: أن السياق الزماني والمكاني وما يتعلق بالحدث كان له أعظم الأثر في اختيار اللفظ القرآني الذي دل على معاني اللطف في الخطاب، إضافة إلى ثراء التنوع الاشتقاقي وما نتج عنه من جمال معنوي أبرز قيمة اللطف في الخطاب بأسلوب ماتع يُظهر براعة اللفظ القرآني وجمال إيقاعه.

الكلمات المفتاحية: اللطف، الخطاب، الأنبياء.

١) هذا البحث مستل من رسالة الماجستير ...

The Rhetoric of Stylistic Features Revealing the Value of Kindness in the Discourse of Prophets in the Holy Quran

Abstract:

This study aims to explore the discourse of the prophets in the Holy Quran, to uncover its styles and features that reveal the value of kindness within the speech, and to analyze them rhetorically. The goal is to derive the moral and behavioral values connected to the aspect of kindness. The researchers employed the methods of induction and analysis after collecting the verses that prominently showcase kindness in the prophets' discourse in the Holy Quran.

The study yielded several findings, the most significant of which are: the temporal and spatial context, as well as the circumstances of the events, had a profound impact on the selection of Quranic vocabulary that indicated the meanings of kindness within the discourse. Furthermore, the richness of derivational diversity produced a beautiful meaning that highlighted the value of kindness in a captivating style, d emonstrating the eloquence of Quranic language and the beauty of its rhythm.

Keywords: Kindness, Discourse, Prophets

المقدمة:

الحمد لله الذي هدانا بالقرآن الكريم، وأرشدنا إلى طريقه القويم، وختم بمحمد صلى الله عليه وسلم خير المرسلين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإنّ القرآن الكريم ببلاغته وجمال إيقاعه لا يزال يكشف عن أسراره للدارسين والباحثين، وكلما نظر فيه الدارسون كشف لهم عن نفائسه وعجائبه التي لا تنقضي، ومن ذلك ما يتعلق ببلاغة القرآن وإعجازه وبيانه واختيار ألفاظه وتراكيبه وترتيبها في نسقٍ مُعجِز متجدد في معانيه. وعليه وجد الباحثان سمةً بارزةً في خطاب الأنبياء في القرآن الكريم وهي حضور قيمة اللطف في سياقات هذا الخطاب، فانعقد العزم على الكشف عن هذا الجانب من جوانب البيان القرآني العظيم.

وعليه سنقوم بدراسة خطاب الأنبياء في القرآن الكريم دراسة بيانية، لتتم دراسة الخطاب الصادر عن الأنبياء والخطاب الموجه إليهم؛ للكشف عن قيمة اللطف الكامنة في خطابهم، وبيان تنوع أساليب خطابهم بحسب ما يقتضيه الحال.

وقد أكدت الدراسة أن القاعدة الأساسية للدعوة هي اللطف في الحوار مع المدعوين وإقناعهم بالحجة والبرهان؛ فيكون لذلك أبلغ الأثر فيهم لقبول الدعوة. وعليه جاءت هذه الدراسة بعنوان بلاغة السمات الأسلوبية الكاشفة عن قيمة اللطف في خطاب الأنبياء في القرآن الكريم، وعُنيت بإبراز أثر المفردات القرآنية في إبراز قيمة اللطف، بالإضافة إلى بيان كيف ساهمت كل من السمات الأسلوبية وتغاير الاشتقاقات اللفظية في إبراز قيمة اللطف في الخطاب.

أهمية الدراسة:

تكمُن أهمية الدراسة في توضيح مدى تأثير اللطف في المخاطبين من قصص الأنبياء في القرآن الكريم، ومن هنا تظهر أهمية الدراسة في:

١. الرغبة في العودة إلى الأصول والروافد الأولى لقيمنا وأفكارنا وتأصيلها تأصيلًا علميًا.
٢. توضيح مدى تأثير الأسلوب على المخاطبين.
٣. توضيح أثر علم المعاني في تنويع الدّرس البلاغي في الآيات التي عنيت بقيمة اللطف في الخطاب.

مشكلة الدراسة:

تكمن مشكلة الدراسة في الإجابة عن السؤال الرئيس الآتي: كيف ظهر اللطف في خطاب الأنبياء في القرآن الكريم؟

ويتفرع عن هذا السؤال الأسئلة الآتية:

١. ما مفهوم اللطف في الخطاب؟
٢. ما التحليل البياني لآيات الخطاب في قصص الأنبياء في القرآن الكريم؟
٣. ما السمات الأسلوبية لآيات الخطاب في قصص الأنبياء في القرآن الكريم؟

أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى ما يأتي:

١. توضيح مفهوم اللطف في خطاب الأنبياء في القرآن الكريم.
٢. توضيح التحليل البياني لآيات الخطاب باللطف من قصص الأنبياء في القرآن الكريم.
٣. الكشف عن السمات الأسلوبية لآيات الخطاب باللطف في قصص الأنبياء في القرآن الكريم.

الدراسات السابقة:

لم يقف الباحثان في حدود اطلاعهما على دراسة مستقلة عنيت بموضوع الدراسة، إلا أنهما وقفا على دراسات قريبة تخدم الموضوع، منها:

١. زقوت، لافي محمد محمود، (٢٠١٠)، لغة الخطاب القرآني في بني إسرائيل (دراسة أسلوبية دلالية)، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا، اللغة العربية وآدابها، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين.

هدفت الدراسة إلى البحث في لغة الخطاب القرآني لبني إسرائيل، والتفريق بين بعض المفاهيم مثل العبراني والإسرائيلي واليهودي، ومحطات تطور بني إسرائيل، حيث جاءت الدراسة في أربعة فصول، تناول فيها الباحث التحليل الصوتي للغة الخطاب القرآني في بني إسرائيل، من خلال دراسة الإيقاعين الخارجي والداخلي، والتنغيم والتماثل. ثم وقف مع التحليل الدلالي للغة الخطاب في بني إسرائيل، ثم قدم تحليلًا تركيبيًا للغة الخطاب القرآني في بني إسرائيل، فبحث في الأساليب الإنشائية، التي مثلت عدولًا عن المألوف؛ لتسهم في تحقيق معانٍ بلاغية يستدعيها السياق، ثم تحدث عن ظاهرة التصوير الفني في لغة الخطاب، كالتصوير من خلال اللفظ والتشبيه والاستعارة والكناية والقصة والحقيقة.

إضافة الدراسة:

تميزت دراستنا عن غيرها كونها تتحدث عن السمات الأسلوبية في الآيات التي اختصت بالكشف عن قيمة اللطف في خطاب الأنبياء في القرآن الكريم، وإظهار جانب اللطف فيه وبيان أثره في المدعوين من خلال الوقوف على أثر المفردة والأسلوب فيهم.

حدود الدراسة:

نظرًا لاتساع قصص الأنبياء التي عرضت لقيمة اللطف فقد تعذر استيعابها كلها، لذلك اقتصر الباحثان على مواقف من قصص بعض رسل الله وهم يوسف وإبراهيم وموسى عليهم الصلاة والسلام.

منهج الدراسة:

اتبع الباحثان في هذه الدراسة منهجين على النحو الآتي:

١. المنهج الاستقرائي وذلك بتتبع قصص أنبياء بني إسرائيل في القرآن الكريم.

٢. المنهج التحليلي الاستنباطي وذلك من خلال البحث في دلالات الآيات القرآنية وانعكاساتها على مفهوم اللطف تأصيلًا وتطبيقًا.

خطة الدراسة:

تألفت هذه الدراسة من ثلاثة مطالب مسبوقة بتمهيد:

التمهيد: وفيه التعريف بمصطلحات الدراسة.

المطلب الأول: استخدام أسلوب الالتفات لإبراز قيمة اللطف.

المطلب الثاني: استخدام أسلوب الحذف والذكر لإبراز قيمة اللطف.

المطلب الثالث: استخدام أسلوب التعريض بالشيء.

التمهيد: التعريف بمصطلحات الدراسة

تقوم الدراسة على مصطلح اللطف أساسًا، لذلك تم الرجوع إلى قواميس اللغة ومعاجمها وذلك لدراسة معاني اللطف لغة، والعرب تقول في وصف الشيء لطيف وتسميه لطفًا وتجعل ذلك من صفات المحامد للشيء.

المطلب الأول: التعريف باللطف لغة واصطلاحًا:

اللُّطْفُ هو الاسم من اللَّطافَةِ."[٢] وله في اللغة معانٍ عدة:

الأول: البرّ والإحسان: "اللَّطَفُ: البِرُّ والتَّكْرِمةُ، وأمٌّ لطيفةٌ بوَلَدها تُلْطِفُ (إلطافًا)، واللَّطَفُ: من طُرَفِ التُّحَف ما أَلطَفْت به أخاك؛ ليَعْرِفَ به بِرَّك، وأنا لطيف بهذا الأمر، أي: رفيق بمُداراته"[٣].

---

[٢] الفارابي، أبو إبراهيم إسحاق، معجم ديوان الأدب، تحقيق: أحمد مختار عمر، مراجعة: إبراهيم أنيس، مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ج ١، ص ١٥٧.

[٣] الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، ج ٧، ص ٤٢٩.

الثاني التواصل: "واللَّطَف مَعْرُوف لَطُفَ يلطُف لُطْفًا ولَطَفًا فَهُوَ لطيف. وتلاطفَ القومُ باللَّطَف تلاطفًا، إذا تواصلوا"[٤].

الثالث: الرّفق واللين: "لَطف فلَان لفُلَان يَلْطُف: إِذا رَفَق لُطْفًا. وَيُقَال: لَطَف الله لَك، أَي: أوْصل إِلَيْك مَا تُحِب برِفْق... وفلانٌ لَطِيفٌ بِهَذَا الْأَمر، أَي: رَفِيقٌ"[٥].

فاللطف: "صغر الشيء، واللطف في الأعمال: الرفق بها، واللطف من الله جل وعز (بعباده): الرأفة والرفق"[٦].

الرابع: "اللطف في العمل الرِفقُ فيه، واللُطْفُ من الله تعالى: التوفيق والعصمة، وألْطَفَهُ بكذا، أي بَرَّهُ به، والاسم اللطف بالتحريك، يقال جاءتنا لطفة من فلان، أي هديَّة، والملاطَفَةُ: المبارَّةُ. والتَلَطُّفُ للأمر: الترفُّق له"[٧].

وعليه تبيّن أن معاني اللطف لغةً تدور حول الرفق واللين وحسنُ الكلامِ أو الفعل.

وللوقوف على المقصود باللطف في المفهوم القرآني كان لا بدّ من حصر الآيات التي ورد فيها لفظ اللطف، وهي على النحو الآتي:

أولًا: قوله تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾ [الأَنْعَام : ١٠٣]

---

[٤] ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن، جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى،١٩٨٧م، ص ٩٢٠.

[٥]الأزهري، محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، ج ١٣، ص ٢٣٥.

[٦]ابن فارس، مجمل اللغة لابن فارس، تحقيق زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م، ج١، ص٨٠٨.

[٧]الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٤، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م، ج ٤، ص ١٤٢٧.

اللطيف صفة مشبهة أو اسم فاعل. فإن اعتبرت وصفًا جاريًا على لطُف فهي صفة مشبهة تدل على صفة من صفات ذات الله تعالى، وهي صفة تنزيهه تعالى عن إحاطة العقول بماهيته أو إحاطة الحواس بذاته وصفاته ... وإن اعتبر اللطيف اسم فاعل من لطَف بفتح الطاء فهو من أمثلة المبالغة يدل على وصفه تعالى بالرفق والإحسان إلى مخلوقاته وإتقان صنعه في ذلك وكثرة فعله ذلك(٨). فالله تعالى محيط بنا عالم بما نُسرّ ونُعلن، ونحن عاجزون لا يُمكننا الإحاطة به، فهو يدبر أمور العباد بكل رفق وإحسان.

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّاۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يُوسُف : ١٠٠] والمعنى " إن ربي لطيف لما يشاء يوصل بره وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر، ويوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها(٩). فقد يكمن الخير بالشر، فيكون ظاهر الأمر بلاء لكن الله بلطفه وتدبيره يجعل عاقبة الأمر خيرًا؛ فالله هو الذي يُجري الأمور كلها؛ لتتحقق للعباد بالكيف والزمان والمكان المناسب.

ثالثًا: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الحَج : ٦٣] أي " أي متفضل على العباد بإيصال منافعهم إليهم برفق ومن ذلك إنزال الماء من السماء واخضرار الأرض بسببه خَبِيرٌ أي عليم بدقائق الأمور ومنها مقادير مصالح عباده."(١٠) فهو أعلم بحاجة عبادة فيوصل لهم الخير بكل برّ ورفق.

---

(٨) ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م، ج٧، ص٤٢٧.

(٩) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠ م، ص٤٠٥.

(١٠) الألوسي، شهاب الدين محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ، ج٩، ص١٨٣.

رابعًا: قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ١٩﴾ [الكَهْف : ١٩ - ٢٠] أي " وليتطلف في التخفي بأمره حتى لا يتفطنوا له"(١١).

خامسًا: قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦﴾ [لُقْمَان : ١٦] أي "لطيف العلم، فلا تخفى عليه الأشياء، وإن دقَّت، ولطفت، وتضاءلت(١٢)". فاللطيف: من يعلم دقائق الأشياء ويسلك في ايصالها إلى من يصلح به مسلك الرفعة، فهو وصف مؤذن بالعلم والقدرة.

سادسًا: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩﴾ [الشُّورَى : ١٩] والمعنى " أنه سبحانه لطيف في إيصال المنافع وصرف البلاء من وجه يلطف إدراكه"(١٣).

سابعًا: قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ٣٤﴾ [الأَحْزَاب : ٣٤] والمعنى أنه سبحانه " خبير بالبواطن، لطيف فعلمه يصل إلى كل شيء ومنه اللطيف الذي يدخل في المسام الضيقة ويخرج من المسالك المسدودة"(١٤). فاللطيف: العالم خبايا الأمور والمدبر لها برقة وحكمة.

---

(١١) البقاعي، إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ج١٢، ص٣٢.

(١٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٦، ص٣٣٨.

(١٣) النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تحقيق يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، ج٣، ص٢٥١.

(١٤) الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ج٢٥، ص١٦٨.

ثامنًا: قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [المُلْك : ١٤] أي:" لطيف بعلمه بما في القلوب"(١٥).

ومما يجدر التنبه إليه مراعاة الفرق بين اللطف المقترن مع صفات الله تعالى، واللطف الظاهر في أفعال العباد، وهو أن اللطيف من أسماء الله الحسنى، يدل على أن الله يوصل رحمته إلى عبادة بكل رفق ولطف، وأنه عليم بخفايا الأمور ودقائقها، فهو الذي يدبر أمور عبادة ويتلطف بهم.

وبهذا يرى الباحثان أن مدار اللطف يذهب في اتجاهين:

القسم الأول: بكونه وصفًا عائداً إلى الله تعالى وهذا كالذي ورد في بعض الآيات السابقة. والذي يقصد به إحاطة العلم بكل الأمور والحرص على تحقيق الخير والمصلحة للعباد، فإن الله تعالى "مُطلع عالم بكل أفعال عبادة ومُيسر لهم الخير ويحفظهم بلطفه لهم، اللَّطِيفُ هُوَ الْبَرُّ بِعِبَادِهِ الَّذِي يَلْطُفُ بِهِمْ مِنْ حَيْثِ لَا يَعْلَمُونَ، وَيُسَبِّبُ لَهُمْ مَصَالِحَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ}"(١٦) [الشورى: ١٩] وهذا القسم لا يصح إلا لله تعالى. ومعنى اللطيف أي " البر بعباده، الذي يلطف لهم من حيث لا يعلمون ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون. كقوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾ [الشُّورَى : ١٩] وحكى أبو عمر عن أبي العباس عن ابن الأعرابي قال: فاللطيف، الذي يوصل إليك أربك في رفق، ومن هذا قولهم: لطف الله لك، أي: أوصل إليك ما تحب في رفق. ويقال: هو الذي لطف عن أن يدرك بالكيفية. وقد يكون اللطف بمعنى الرقة، والغموض، ويكون بمعنى الصغر في نعوت الأجسام، وذلك مما لا يليق بصفات الباري سبحانه"(١٧).

---

(١٥) البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط١، ١٤٢٠هـ، ج٥، ص١٢٦.

(١٦) الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٤، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م، ج ٤، ص ١٤٢٧.

(١٧) الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد، شأن الدعاء، تحقيق: أحمد يوسف الدّقاق، دار الثقافة العربية، ط١، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م، ص٦٢.

والقسم الثاني: أن نقصد باللطف الرقة والألفة وحب الخير للآخرين، ومراعاة شعورهم وحالهم وعدم أذيتهم والحرص على تحقيق الخير لهم، والتعامل معهم باللين والرقة، فيكون هذا القسم متعلقاً بأفعال العباد وسلوك بعضهم لبعض، وهذا الذي نريد في هذه الدراسة. قال الراغب: "اللَّطِيفُ إذا وصف به الجسم فضدّ الجثل، وهو الثّقيل، يقال: شعر جثل، أي كثير، ويعبّر باللَّطَافَةِ واللُّطْفِ عن الحركة الخفيفة، وعن تعاطي الأمور الدّقيقة، وقد يعبّر باللَّطَائِفِ عمّا لا تدركه الحاسة، ويصحّ أن يكون وصف الله تعالى به على هذا الوجه، وأن يكون لمعرفته بدقائق الأمور، وأن يكون لرفقة بالعباد في هدايتهم، قال ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ "(١٨).

وعليه نقول إن المعنى الاصطلاحي للطف في حق الله يُقصد به: إحاطة علم الله بدقائق الأشياء والأقدار، وتحقيق مصلحة العباد على أحسن وجوه المصلحة والخير.

واللطف في أفعال العباد يُقصد به: الرقة والألفة وحب الخير للآخرين، ومراعاة شعورهم وحالهم وعدم أذيتهم والحرص على تحقيق الخير لهم، والتعامل معهم باللين والرقة.

المطلب الأول: استخدام أسلوب الالتفات لإبراز قيمة اللطف.

لا شك أنَّ السمات الأسلوبية لها وافر الحظ في إتمام المعنى وإظهار الجملة بأفضل تركيب وصورة، والتي بدورها تعطي للقارئ الرغبة في التمعن والتدبر، وذلك بالانتقال به من أسلوب لآخر. وعليه جاءت هذه المطالب لبيان أثر السمات الأسلوبية في إبراز قيمة اللطف في خطاب الأنبياء.

عرف الثعالبي الالتفات فقال: هو أن "تذكر الشيء وتتمَّ معنى الكلام به ثم تَعودَ لذكْره كأنَّك تلتَفِتُ إليه"(١٩). ومعنى ذلك أن يكون المتكلم في موضوع ثم ينتقل إلى آخر ثم يلتفت إلى الموضوع الأول مرة أخرى.

---

(١٨) الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ، ص ٧٤٠.

(١٩) الثعالبي، عبد الملك بن محمد، فقه اللغة وسر العربية، تحقيق عبد الرزاق المهدي، إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م، ص٢٧٦.

وعرفه العباسي: "أنه انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى معنى آخر"(٢٠). ومعنى ذلك أن يكون المتكلم في موضوع ثم يلتفت إلى موضوع آخر.

والالتفات أحد سمات الكلام البليغ، وضابطه أنه القدرة على التنقل بين فنون الخطاب دون إشعار المستمع بخلل أو فجوات في الكلام. ومن صور الالتفات أيضا ما أشار إليه ابن الأثير بقوله: " الالتفات الرجوع من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، يفعل ذلك على عادة العرب في افتنانهم في الكلام، وفيه فوائد كثيرة، لأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظًا للإصغاء إليه، من أجرائه على أسلوب واحد"(٢١).

وللالتفات أقسام كما ذكرها ابن الأثير:

القسم الأول: "الرجوع من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة.

القسم الثاني: الرجوع عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر، وعن الفعل الماضي إلى فعل الأمر

القسم الثالث: الإخبار عن الفعل الماضي المستقبل، وعن الفعل المستقبل بالفعل الماضي"(٢٢).

وفيما يأتي أمثلة لهذا الأسلوب:

أولًا: قال تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَٰطِـِٔينَ ٢٩﴾ [يُوسُف : ٢٩]

ففي حين كان الخطاب في مبتدأ الآية ليوسف عليه السلام إلا أنه تحول إلى امرأة العزيز بانسياب أسلوبي يخلو من اختلال التركيب وتكلف التحول من خطاب إلى آخر. وقوله تعالى " (يوسف) حُذف منه حرفُ

---

(٢٠) المعتز بالله، أبو العباس، عبد الله بن محمد، البديع في البديع، دار الجيل، ط١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، ص٣٣.

(٢١) ابن الأثير، ضياء الدين، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، مصطفى جواد، مطبعة المجمع العلمي، مطبعة المجمع العلمي، ١٣٧٥هـ، ص٩٨.

(٢٢) ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة . القاهرة، ج٢، ص٣١٥.

النداء لقربه وكمالِ تفطُّنه للحديث وفيه تقريبٌ له وتلطيفٌ لمحله... (واستغفري) أنت يا هذه (لذنبك) الذي صدر عنك وثبَتَ عليك (إنك كنت) بسبب ذلك من جملة القوم المعتمدين للذنب أو من جنسهم "(٢٣).

ولما كان خطاب يوسف محلّ تكريم جاء باسمه صريحاً إبرازاً لقدره، ونصّاً على براءته، وتصريحا بكمال عفّته. بينما التفت الخطاب إلى امرأة العزيز بقوله واستغفري دون التصريح باسمها، لأنها خرجت عن فطرة الأنثى التي لا ينبغي لها أن تنحدر إلى هذا المستوى من الفعل القبيح، فكان أن التفت إليها بالخطاب على هذه الجهة تحقيراً لفعلها وتعجّبا من حالها، ولا يخفى ما في الالتفات من سترٍ رجاء توبتها ومحو سيرة ذنبها كما سيأتي في منتهى قصة يوسف عليه السلام.

ثانياً: قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يُوسُف : ٨٧]

كان عند يعقوب يقينٌ أن يوسف عليهما السلام لم يمت بمقتضى الرؤيا، بل إنه بعد الحادثة التي حصلت مع بنيامين من اتهامه بالسرقة وأخذ الملك له دون إهانته أو ضربه، شعر وزاد أمله بأن هذا الملك يوسف عليه السلام، لذلك طلب من أولاده أن يذهبوا ويتتبعوا أخبار يوسف للبحث عن دليل أو علامة تدلهم عليه، وأوصاهم بالصبر، وعدم القنوط أو اليأس رحمة الله"(٢٤).

كما أنه خاطبهم بوصف البنوة منه ترقيقا لهم وتلطفا في خطابهم ليكون أبعث على الامتثال. فرحمة الله عظيمة تشمل كل خير، ولا شك أنَّه سبحانه لن يضيعهم وسيجازيهم بما يفرحهم لقاء حسن ظنّهم. قال ابن الجوزي: "الروح: الاستراحة من غمّ القلب، وقال أهل المعاني: لا تيأسوا من الروح الذي يأتي به الله، إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ لأن المؤمن يرجو الله في الشدائد"(٢٥). فأخبرهم أنّ المؤمن الذي يعرف قدرة الله

---

(٢٣) أبو السعود العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج٤، ص٢٧٠.

(٢٤) العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين، التبيان في إعراب القرآن، تحقيق علي محمد البجاوي، الناشر عيسى البابي الحلبي وشركاه، ج٢، ص٧٤٣.

(٢٥) ابن الجوزي، جمال الدين، زاد المسير في علم التفسير، ج٢، ص٤٦٦.

وعظيم كرمه لا ييأس من رحمة الله، ثم جاء التعبير بالالتفات إلى أن الذي يقنط من رحمة الله هم الكافرون "لأن سببه تكذيب الربوبية أو الجهل بصفات الله من قدرته وفضله ورحمته".(٢٦)

فكان من لطفه وحسن تعبيره مجيء وصيته لهم بأسلوب الالتفات حتى يظهر الفرق بينهم وبين أهل القنوط. وكأنه يقول لهم: إن القنوط ليس من شأنكم، ولا ينبغي أن يكون له في قلوبكم محلّ. ولما كان يشير عليهم بأن يكونوا على ما يحبه لهم أشار عليهم بما يريده بأسلوب الالتفات تلطفا بهم وحرصا على كمال انتفاعهم بوصيته عليه السلام على أحسن وجوهها، كي لا يكونوا مثل أولئك الين ييأسون من رحمة الله عند البلاء والشدائد.

المطلب الثاني: استخدام أسلوب الحذف والذكر لإبراز قيمة اللطف.

يعدّ الحذف والذكر أحد أركان البلاغة العربية، والحذف خلاف الأصل، ويأتي لمجرد الاختصار والاحتراز عن العبث لظهوره، وللتنبيه على أن الزمان يتقاصر عن الإتيان بالمحذوف وأن الاشتغال بذكره يفضي إلى تفويت المهم، ويدل أيضاً على التفخيم والإعظام لما فيه من الإبهام(٢٧).

ومن دواعي الحذف إذا دلّت عليه قرينة، نذكر منها:

١. ضيق المقام عن إطالة الكلام بسبب تضجر وتوجّع.
٢. كون المسند إليه معينًا معلومًا حقيقة نحو: (عالم الغيب والشهادة).
٣. تكثيرُ الفائدة نحو: فصبرٌ جميل (أي فأمري صبر جميل)(٢٨).

وقد يتم يُفهم من السياق المقصود من الكلام، ومع ذلك يتم الذكر ولا شك من وجود فائدة من ذلك، ومن دواعي الذكر:

---

(٢٦) ابن جزي، أبو القاسم، محمد بن أحمد، التسهيل لعلوم التنزيل، تحقيق عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ، ج١، ص ٣٩٥.

(٢٧) ينظر: السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، ج٣، ص١٩٠.

(٢٨) ينظر: الهاشمي، أحمد بن إبراهيم، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، تحقيق: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت، ص١٠٣.

١. الاحتياط بذكر العنصر؛ لضعف التعويل على القرينة فيما لو حُذِف؛ إذْ تكون القرينة غير كافية للدلالة عليه، ويخشى المتكلّم أن يَلْتَبِسَ المرادُ على المتلَقِّي إذا حذفه تعويلًا على القرينة التي يمكن أن تدُلَّ عليه.

٢. إرادة زيادة الإيضاح والتقرير، وذلك حين يكون الموضوع يقتضي ذلك، كأمور العقائد.

٣. إرادة التعظيم والتفخيم، ويظهر هذا في نحو الأسماء والألقاب التي يُشْعِر ذكْرُها بعظمة أصحابها وفخامتهم(٢٩).

ومن الأمثلة التي تكشف عن المراد :

أولًا: قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٦٩﴾ [يُوسُف : ٦٩]

كان من لطف يوسف عليه السلام أنه سارع إلى طمأنة بنيامين، وإزالة الخوف عنه، قال الواحدي: قال تعالى: " وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُ ضمَّه إليه، وأنزله عند نفسه قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ اعترف له بالنِّسب وقال: لا تخبرهم بما ألقيت إليك فَلَا تَبۡتَئِسۡ فلا تحزن ولا تغتم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ من الحسد لنا وصرف وجه أبينا عنَّا"(٣٠). فمن بالغ لطفه أنه عمّد إلى إيناس أخيه وإزالة الخوف عنه بأخباره عن هويته وتقريبه منه فقد قام بتوزيع الأخوة بحيث يبقى كل اثنان مع بعض فبقي بنيامين وحده فضمه يوسف عليه السلام إليه وكان كل ذلك تدبير من يوسف عليه السلام حتى يخبره بحقيقة هويتّه. "قال له: إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ واختلف المتأولون في هذا اللفظ على أقوال منها، أنه أخبره بأنه أخوه حقيقة واستكتمه، وقال له: لا تبال بكل ما تراه من المكروه في تحيّلي في أخذك منهم. وعلى هذا التأويل يحتمل أن يشير بقوله: بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ إلى ما يعمله فِتيان يوسف، من أمر السقاية ونحو ذلك، ويحتمل أن يشير إلى ما عمله الإخوة قديمًا. وقال وهب بن منبه: إنما أخبره أنه أخوه في الودّ مقام أخيه الذاهب، ولم يكشف إليه الأمر بل تركه تجوز عليه الحيلة كسائر إخوته"(٣١).

---

(٢٩) ينظر حَبَنَّكَة، عبد الرحمن بن حسن، البلاغة العربية، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، ج١، ص٣١٤.

(٣٠) الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ص٥٥٤.

(٣١) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج٣، ص٢٦٣.

وعلى كلتا الحالتين كان هدف يوسف عليه السلام إشعار أخيه بالأمان، ولذلك جاء الضمير أَنَا للزيادة في التوكيد والإسراع في التلطف، ورفع الاستيحاش المتوقع من أخيه خصوصا إذا نظرنا الى طبيعة التهمه لأجلها تم حجزه.

قال الرازي: "وقوله: آوى إليه أخاه أي أنزله في الموضع الذي كان يأوي إليه. وقوله: إني أنا أخوك فيه قولان: الأول: لم يُرد أنه أخوه من النسب، ولكن أراد به إني أقوم لك مقام أخيك في الإيناس؛ لئلا تستوحش بالتفرد. والصحيح ما عليه سائر المفسرين من أنه أراد تعريف النسب؛ لأن ذلك أقوى في إزالة الوحشة وحصول الأنس؛ ولأن الأصل في الكلام الحقيقة، فلا وجه لصرفه عنها إلى المجاز من غير ضرورة. ولما أراد يوسف عليه السلام أن يزيد في التلطف والتأنيس أَتبع ذلك بقوله فلا تبتئس حتى يزيل من نفسه كل حزن وخوف، ثم إنه أراد أن يكون اللطف الذي في نفسه عليه السلام ممتدًا إلى نفس أخيه فصرح له بجملة السبّبية في قوله: بما كانوا يفعلون وكأنه عليه السلام يريد أن يجعل قلب أخيه سالمًا من الحزن، وصافيًا من الغِلّ على إخوانه بسبب سوء طويتهم، وهذا من كمالات اللطف البشري فيما يكون بين الناس من تعاملات. قال الطبري:" أي فلا تستكن، ولا تحزن"(٣٢). بل طلب إليه أن يسامح إخوتهم على سوء أفعالهم بهم، وأن يشكر الله على جمعهم بعد مضي كل هذا الوقت وهذه المعاناة.

كما أن من بلاغة تعبير أن جملة قال إني أنا أخوك بدل اشتمال من جملة آوى إليه أخاه وكلمه بكلمة مختصرة بليغة، إذ أفاده أنه هو أخوه الذي ظنّه أكله الذئب، فأكد الخبر بأنّ وبالجملة الاسمية وبالقصر الذي أفاده ضمير الفصل، أي أنا مقصور على الكون أخاك لا أجنبي عنك، فهو قصر قلب لاعتقاده أن الذي كلمه لا قرابه بينه وبينه.(٣٣)

فيلاحظ كيف أن التعبير جاء بذكر (أنا) في قوله: قال إني أنا أخوك ليفيد التأكيد، فكأن يوسف عليه السلام أراد أن يسارع في طمأنته لأخيه، بالإضافة إلى أنَّه كان متلهفًا متشوقًا للاجتماع بأخيه بعد طول الفراق فذكر كلامه مؤكدًا له بـ (أنّ) حتى يكون أسرع في التصديق، وتقبل الخبر.

---

(٣٢)ابن جرير، الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج١٦، ص١٧٠.

(٣٣) نوفل، أحمد، سورة يوسف دراسة تحليلية، ص٤٩٢-٤٩٣.

ثانياً: قال تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القَصَص : ٢٤]

من المعلوم أن الله تعالى قريب من عباده فهو عليمُ بحالهم لطيفُ بتدبير شؤونهم، وهذه الآية جاءت لتبين كيف أن موسى عليه السلام كان مستشعرًا قرب الله منه، لذلك حذف أداة النداء، فقال: فَقَالَ رَبِّ ولم يقل {يا رب} فهو متيقن أن الله معه، ولن يضيّعه، رغم شدة الظروف من حوله، إلا أنه بقي مستشعرًا فضل الله عليه، قال ابن عطية: "وتعرض لسؤال ما يطعمه بقوله: رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ، ولم يصرح بسؤال، فقيل: إنه طلب في هذا الكلام ما يأكله. قال ابن عباس: وكان قد بلغ به الجوع واخضرّ لونه من أكل البقل وضعف حتى لصُق بطنه بظهره، ورأيت خضرة البقل في بطنه وإنه لأكرم الخلق يومئذ على الله، وروي أنه لم يصل إلى مدين حتى سقط باطن قدمه(٣٤). ولسنا هنا في معرض الحكم على هذه الاسرائيليات خصوصًا وأنّ ما فيها من معاني لا ينافي عصمة الأنبياء إلا أنَّها تكشف عن الاستشعار الحقيقي للقرب، وذلك الذي جعل أداة النداء تحذف في هذا المقام. فقوله رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ جملة جامعة للشكر والدعاء.

المطلب الثالث: استخدام أسلوب التعريض بالشيء

يعد التعريض ضد التصريح، " وهو إفهام المعنى بالشيء المحتمل له ولغيره. وهو من عرض الشيء وهو جانبه، كأنَّه يحوم به على الشيء ولا يظهره"(٣٥). فسياق الكلام يكون لشيء لكن المقصود يُعنى به ما لم يذكر أو من لم يقُم بالفعل.

قال الزمخشري: "التعريض أن تذكر شيئًا تدل به على شيء لم تذكره"(٣٦). فالمتكلم يتحدث عن فكرة أو فعل معين، لكن المقصود يكون لمن لم يقم بالفعل. كما أنه يُقصد بـ"التعريض أن يكنى عن الشيء ويعرض به ولا يصرح على حسب ما عملوا باللحن والتورية عن الشيء"(٣٧).

---

(٣٤) ابن عطية، أبو محمد عبد الحق، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج٤، ص٢٨٤.

(٣٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج٣، ص١٨٨.

(٣٦) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ج١، ص٢٨٢.

(٣٧) المعتز بالله، أبو العباس، عبد الله بن محمد، البديع في البديع، ص٣٩.

وسنقف في هذا المطلب عند بعض الأمثلة التي جاء فيها التعريض في خطاب الأنبياء في القرآن الكريم:

أولًا: قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣﴾ [يُوسُف : ٣٣]

بعد ما انكشف أمر زوجة العزيز لم يؤثر ذلك فيها، فلم تشعر بالحرج من سوء ما فكرت به، بل على العكس قامت بجمع النسوة؛ لتريهم أنها كانت مُحقّة بما طلبته من يوسف عليه السلام، والغريب أنّهنّ وافقنّها الرأي، وهذا يدل على سوء البيئة في ذلك الوقت، ويكشف عن قوة إيمان يوسف عليه السلام وثبات مخافة الله في قلبه، لذلك قال: الحبس في السجن أحب إليَّ مما يدعونني إليه. فمن لطفه أنه لم يصرح بذكر زوجة العزيز بمفردها رغم أنها سبب البلاء الذي هو فيه الان، لكن من لطفه ومن حسن تعامله وأمانته وحرصه على عدم افتضاح شأن زوجة العزيز الذي أحسن إليه مُذ أن وجده، وعملًا بوصيته بالإعراض عن الأمر، وعدم البوح بما فعلته زوجة العزيز؛ لذلك لم يرد التصريح باسمها. وقد يحتمل وجهين: أحدهما: أنه أراد امرأة العزيز فيما دعته إليه من الفاحشة وكنَّى عنها بخطاب الجمع، إما تعظيمًا لشأنها في الخطاب، وإما ليعدل عن التصريح إلى التعريض. الثاني: أنه أراد بذلك جماعة النسوة اللاتي قطّعن أيديهنّ حين شاهدنه لاستحسانهنّ واستمالتهن لقلبه(٣٨).

ثانيًا: قال الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ٦٢ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ٦٣﴾ [الأَنبِيَاء : ٦٢ - ٦]

كان من الأساليب التي استخدمها إبراهيم عليه السلام التحدي والتعجيز، لذلك جاءت هذه الآية فقد طلب منهم فعلًا يستحيلُ أن يقدروا عليه لا هم ولا آلهتهم، محاولة منه في تصحيح معتقداتهم، التي أدت بهم إلى جعلهم يعبدون الأصنام التي لا تقدر على دفع الضر عن نفسها. لذلك أراد منهم أن يتفكروا فقام بتحطيم أصنامهم التي يعبدونها، عندما كانوا خارج المدينة في أحد أعيادهم، وابقى على أكبر صنم لديهم حتى يرجعوا إليه لمعرفة ما حلّ بباقي الأصنام، ليصلوا بنهاية الأمر إلى معرفة أنهم ظلموا أنفسهم بعبادتهم لها، فيصدقوا إبراهيم ويؤمنوا به، لكن لم يحصل ذلك فكان الكفر قد تمكن في قلوبهم وصرفهم عن رؤية الحق. قال القرطبي: "علق

(٣٨) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد، النكت والعيون، ج٣، ص٣٤ بتصرف.

إبراهيم فعل الكبير بنطق الآخرين، تنبيهًا لهم على فساد اعتقادهم. كأنه قال: بل هو الفاعل إن نطق هؤلاء. وفي الكلام تقديم على هذا التأويل في قوله:" فسئلوهم إن كانوا ينطقون". وقيل: أراد بل فعله كبيرهم إن كانوا ينطقون. بيّن أن من لا يتكلم ولا يعلم لا يستحق أن يُعبد. وكان قوله من المعاريض، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب. أي سلوهم إن نطقوا فإنهم يصدقون، وإن لم يكونوا ينطقون فليس هو الفاعل. وفي ضمن هذا الكلام اعتراف بأنه هو الفاعل وهذا هو الصحيح لأنه عدده على نفسه، فدل أنه خرج مخرج التعريض. وذلك أنهم كانوا يعبدونهم ويتخذونهم آلهة من دون الله، كما قال إبراهيم لأبيه: يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر"[٣٩].

ثالثاً: قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ٢٧﴾ [غَافِر : ٢٧]

يعطي موسى عليه السلام الحل الأمثل في مواجهة المصاعب عند الخوف، وهو اللجوء إلى الله، فهو وحده القادر على كل متجبر وطاغية عنيد، وهو وحده الذي يُعزّ المؤمنين، قال الزمخشري: لما سمع موسى عليه السلام بما أجراه فرعون من حديث قتله: قال لقومه إِنِّيٓ عُذْتُ بالله الذي هو ربّي وربّكم، وقوله وَرَبِّكُمْ فيه بعث لهم على أن يقتدوا به، فيعوذوا بالله عياذه، ويعتصموا بالتوكل عليه اعتصامه، وقال مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لتشمل استعاذته فرعون وغيره من الجبابرة، وليكون على طريقة التعريض، فيكون أبلغ، وأراد بالتكبر: الاستكبار عن الإذعان للحق، وهو أقبح استكبار وأدله على دناءة صاحبه ومهانة نفسه، وعلى فرط ظلمه وعسفه، وقال لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ؛ لأنه إذا اجتمع في الرجل التجبر والتكذيب بالجزاء وقلة المبالاة بالعاقبة، فقد استكمل أسباب القسوة والجرأة على الله وعباده(٤٠). فقوله: (عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم) خطاب لقومه من بني إسرائيل تطميناً لهم وتسكيناً لاستطاعتهم عليه من بطش فرعون. فأخبر موسى قومه بأن ربه حافظ له ليثقوا بالله ويحسنوا الظن.

وجعلت صفة (لا يؤمن بيوم الحساب) مُغنية عن صفة الكفر أو الاشتراك لأنها تتضمن الاشتراك وزيادة؛ لأنه إذا اجتمع في المرء المتجبر والتكذيب بالجزاء قلت: مبالاته بعواقب اعماله فكملت فيه أسباب القسوة والجرأة على الناس. فكان لطفه أنه بدأ بنفسه؛ ليبين لهم أنه مثلهم بحاجة إلى الله تعالى، فكلهم أمام الله سواء، وذكر

---

(٣٩) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، ج١١، ص٣٠٠.

(٤٠) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ج٤، ص١٦١.

فرعون تعريضًا؛ لأنه كان طاغيةً ظالماً لبني إسرائيل، لكنه لم يصرح بكونه يقصده، بل استعاذ بالله من كل متكبر دون تخصيص التكبر بفرعون، بل اكتفى بالتعريض، ولا شك أن ذلك دليل على لطفه في دعوته، وخطابه لقومه.

الخاتمة:

الحمد لله على التمام، والصلاة والسلام على رسول الله خير الأنام وعلى آله وصحبه الكرام، وبعد:

فقد خلصت الدراسة إلى نتائج من أهمها:

١- يعد اللطف ركنا أصيلا شكل منظومة الخطاب لرسل الله صلوات الله عليهم أجمعين. وشمل ذلك الخطاب الموجه إليهم من الله جل جلاله، والخطاب الصادر عنهم إلى أقوامهم.

٢- أفادت السياقات القرآنية بأن نتيجة الخطاب القائم على اللطف تنتهي بأحسن وجوه المصلحة.

تنوعت الأساليب القرآنية التي كشفت عن قيمة اللطف في خطاب الأنبياء. فكان منها استخدام أسلوب الالتفات لإبراز قيمة اللطف، واستخدام أسلوب الحذف والذكر لإبراز قيمة اللطف، استخدام أسلوب التعريض بالشيء.

٣- لا يتوقف الكشف عن قيمة اللطف عند الأساليب التي وقفت الدراسة معها، بل هناك أساليب أخرى كثيرة، لكن الدراسة وقفت عند ما توفر منها في الآيات محلّ البحث.

التوصيات:

يوصي الباحثان بدراسة الأساليب البيانية الكاشفة عن قيمة اللطف في خطاب الأنبياء في أطروحة علمية تشمل القصص القرآني بتمامه.

المصادر والمراجع:

١- ابن الأثير، ضياء الدين، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، مصطفى جواد، مطبعة المجمع العلمي، مطبعة المجمع العلمي، ١٣٧٥هـ.

٢- ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة.

٣- ابن جزي، أبو القاسم، محمد بن أحمد، التسهيل لعلوم التنزيل، تحقيق عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ.

٤- ابن الجوزي، جمال الدين، زاد الميسر في علم التفسير، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العلمي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

٥- ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن، جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى،١٩٨٧م.

٦- ابن عطية، أبو محمد عبد الحق، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

٧- ابن فارس، مجمل اللغة لابن فارس، تحقيق زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

٨- ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

٩- ابن كثير، أبو الفداء، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

١٠- أبو السعود العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١١- الأزهري، محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

١٢- الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

١٣- الألوسي، شهاب الدين محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

١٤- البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط١، ١٤٢٠هـ.

١٥- البقاعي، إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

١٦- الثعالبي، عبد الملك بن محمد، فقه اللغة وسر العربية، تحقيق عبد الرزاق المهدي، إحياء التراث العربي، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

١٧- الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٤، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

١٨- حبنكة، عبد الرحمن بن حسن، البلاغة العربية، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

١٩- الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد، شأن الدعاء، تحقيق: أحمد يوسف الدّقاق، دار الثقافة العربية، ط١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٢٠- الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢١- الزمخشري، أبو القاسم محمد بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ.

٢٢- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٢٣- السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م.

٢٤- الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.

٢٥- العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين، التبيان في إعراب القرآن، تحقيق علي محمد البجاوي، الناشر عيسى البابي الحلبي وشركاه.
٢٦- الفارابي، أبو إبراهيم إسحاق، معجم ديوان الأدب، تحقيق: أحمد مختار عمر، مراجعة: إبراهيم أنيس، مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
٢٧- الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
٢٨- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
٢٩- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد، النكت والعيون، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
٣٠- المعتز بالله، أبو العباس، عبد الله بن محمد، البديع في البديع، دار الجيل، ط١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
٣١- النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تحقيق يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
٣٢- نوفل، أحمد، سورة يوسف دراسة تحليليه، كلية الشريعة، الجامعة الأردنية، دار الفرقان، عمان، الاردن، ط١، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م.
٣٣- الهاشمي، أحمد بن إبراهيم، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، تحقيق: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت.
٣٤- الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، ط١، دت.